الاستعمار الأكاديميّ وأزمة إنتاج المعرفة

ثريا بن مسميّة *

المقدّمة

إذا كان من تصنيف دقيق لإستراتيجيَّات التَّغريب الَّتي مارستها المركزيَّة الأوروبيَّة وهي تتعامل مع نخب الشَّرق العربيّ والإسلاميّ ابتداءً من مرحلة الاستعمار الجديد، فسيكون للتَّغريب الأكاديميّ مكانةً مركزيَّةً في تلك الإستراتيجيَّات. ويمكن القول: إنَّ البعثات الاستعماريَّة حتّى تلك الَّتي جرت قبل حملة نابوليون بونابرت على مصر، جعلت للحقل الأكاديميّ أهمّيّة استثنائيَّة، بوصفه الحقل الَّذي من خلاله تعيد صناعة الوعي، بعد إطاحة التَّقاليد الثَّقافيَّة الَّتي تُشكّل في الحقيقة خطّ الدِّفاع الأوَّل عن قيم شعوب المنطقة المعنويّة والأخلاقيَّة والدّينيَّة.

لقد بدا واضحًا كيف تعاملت البعثات الاستشراقيَّة مع المدارس والمعاهد والجامعات في العالمين: العربيّ، والإسلاميّ في سبيل تحقيق تلك الغاية الاستعماريّة. وعلى أيّ حال، فقد تعدَّدت التّيّارات التَّغريبيّة ذات الأبعاد: السّياسيّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة، والفنّيّة. ومن بينها تيّار التّغريب الأكاديميّ الضّارب بجذوره في عصور الاستعمار القديم والمستحدث، كما يتموضع بقوَّة في مسار

* باحثة وأستاذة فلسفة الجمال في كلّيَّة أصول الدِّين - جامعة الزيتونة - تونس.

الحياة الإنسانيّة الرّاهنة المُتنوّعة من جهة مكوّناتها الثّقافيّة. أمّا غايته الكبرى فهي طبع الحياة المعنويّة والثّقافيّة في بلادنا بطابع الغرب وأسلوب حياته تحقيقًا لأبرز الأهداف وهي الدّوران بلا هوادة في فلك المركزيّة الغربيّة.

إذا كان المشغل العامّ الَّذي تندرج فيه دراسة ذلك التّيّار، هو حوار الحضارات، فإنّ اللّافت للانتباه هو طبيعة ذلك الحوار اللَّامُتكافئ؛ فهو يدور بين شرق يعاني مختلف الأزمات: الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة؛ وغرب تجاوز الذّات إلى ما يحصّنها ويجعل منها مركزًا مستقطِبًا. فالتّنمية عند أغلب النُّخب العربيّة تنهض على ربط المصير العربيّ الإسلاميّ بمسالك التّقدّم الغربيّ اعتبارًا لوحدة المصير الإنسانيّ. وهو توجّه يضحّي بالفوارق الهُويّاتيّة والخُصوصيّات الحضاريّة.

عوامل التّغريب وعلاماته التّأسيسيّة

وجد ذلك التّيّار التّغريبيّ جذوره في المحاولات الإصلاحيّة الَّتي رام أصحابها، منذ القرن التّاسع عشر، تحقيقها بالأخذ عن الغرب ما يلائم الشَّريعة من التّنظيمات المدنيّة مثل خير الدّين باشا التونسي (ت 1890 م) في مقدّمة كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، ورفاعة رافع الطّهطاوي المصريّ (ت1873م) في كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريس». ولكنّ الفارق النّوعيّ بين تلك المنطلقات الإصلاحيّة، وجوهر التّيّار التّغريبيّ هو أنّ الوجه الحقيقيّ للغرب والمُتمثِّل في الاستعمار والنّزعة التّوسُّعيَّة. لم يكن جليًّا أمام المصلحين على عكس أصحاب التّيّار التّغريبيّ الّذين جاؤوا تاريخيًّا بعد حروب ماديّة وثقافيّة.

بصفة إجماليّة، يظلّ التّغريب مُعبّرًا عن صيرورة لإحداث التّشابه الهجين بين طرفين. والمهمّ أنّ التّغريب تيّار يتّسم بالقهريّة والإجباريّة، سواء وعى المُتغرّب العربيّ والمسلم ذلك أم لم يعِ. فالتّغريب يبدأ بالإعجاب ثمّ الانبهار ثمّ التّعلُّق ثمّ الاندماج والانصهار. وهو ما يُفضي إلى أن يكون الشّرق تابعًا والغرب متبوعًا في المستوى الثّقافي أساسًا؛ لأنّه يتضمّن أساليب العيش وطرائق التّفكير. وما من شكّ في أنّ أخطر أنواع التّغريب هو التّغريب الثّقافيّ؛ لأنّه هو الضّامن لتحقيق التّلاعب بالعقول وإنجاز الانسلاب والانسلاخ عن الجذور. وهو ما يندرج ضمن إستراتيجيّة محو كلّ القوى الحيويّة المُضادّة والمقاومة لإرادة المسخ والذّوبان من قبيل الدّين

واللُّغة. فما أهمّ العوامل الدَّاعية لدوران بعض النّخب الأكاديميّة العربيّة في فلك التّغريب؟

قبل الخوض في عوامل التّغريب تجدر الإشارة إلى أنّ المقصود بهذا المصطلح هو العمل على خلق عقليّة تنهض على مقاييس الفكر الغربيّ وتوجُّهاته المختلفة من أجل تحقيق هدف أساس هو محاصرة المنتوجات الفكريّة الإسلاميّة ومناوأتها، ومصادمة القيم الشّرقيّة بصفة عامّة. والعمل على تهديمها لفسح المجال أمام سيادة الحضارة الغربيّة. وهكذا، تتعمّق المركزيّة الغربيّة الّتي تعمل على تحقير مُكوّنات الحياة الشّرقيّة، ونبذ المُكوّنات الهُويّة وإبعادها عن مراكز الضّغط والتّأثير. فالأرضيّة النّظريّة لتيّار التّغريب الأكاديميّ هي تحطيم معالم الشّخصيّة المميّزة للحضارة الإسلاميّة، وذلك التّيّار يستعمل أدوات التّرغيب والتّرهيب في استمالة أنصاره. وهو يعمد إلى تحقير الآخر وتهجينه، وإلى تمجيد الغرب وتعظيمه. وبذلك، يقضي على الاختلاف البنّاء. علمًا أنّ البحث العلميّ أبعد ما يكون عن العاطفة، والتّجييش، والحماسة.

لمّا كانت العوامل تتضافر بصفة طبيعيّة في بلورة أيّ ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة، فإنّ العوامل الكامنة وراء ظاهرة التّغريب عديدة ومُتنوّعة، لعلّ من أبرزها العامل النّفسيّ الذّي ضبطه ابن خلدون وحدّد معالمه في مقولته الشّهيرة «المغلوب مولع أبدًا بتقليد الغالب»[1]. وقد توسّع المُفكّر الجزائريّ مالك بن نبّي في تحليل ذلك العامل، وعبّر عنه بطريقته الخاصّة عندما أطلق عليه عبارته المُميّزة وهي «القابليّة للاستعمار». وحسب رأيه يتضافر جفاف الرّوح ،وضبابيّة الرُّؤية، وانفصام الشّخصيّة، وتهرّؤ النّسيج الاجتماعيّ؛ لتكريس تخلّف المجتمع الإسلاميّ الّذي انطمست فاعليّته الحضاريّة لتحلّ محلّها القابليّة للاستعمار. ولا شكَّ في أنّ ضعف الحصانة الحضاريّة والاجتماعيّة مهدّد بتغلّب الآخر مؤذن باختراقه الذّات[2].

في فضاء ذلك العامل الدّاخليّ، كانت الحياة العقليّة والثّقافيّة في العالم الإسلاميّ

1- عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار عالم الثّقافة ، الأردن، وبالتّحديد الفصل الثّالث والعشرون: في أنّ المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، ص 184.

2- ناجي الحجلاوي، التفكير الاجتماعيّ عند مالك بن نبي، الدّار التّونسيّة للكتاب، تونس، 2011م، ص 101، 102.

تتّسم بالجمود والتّحلّل والتّقليد، ولا سيّما في أواخر عهد الخلافة العثمانيّة. وتلك الحالة يسمّيها مالك بن نبيّ بتهرُّؤ شبكة العلاقات الاجتماعيّة، حيث التّكلُّس الفكريّ، والتّأخُّر الثّقافيّ، وغلبة التّقليد، وعدم الاهتمام بالوقت والإنسان والتّراب. وعلى نقيض ذلك، يقترح حلولًا نهضويّة من قبيل توجيه الثّقافة، وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال[1]؛ ما جعل إمكانيّة اختراقها من الثّقافة الغربيّة المتصاعدة أمرًا ميسورًا.

إنّ ذلك العامل يجعل الأكاديميّين العرب في وضع لا يُحسدون عليه؛ لأنّهم ينوسون بين تراث يجهلونه، وحضارة غربيّة يعيشون على هامشها ولا يفعلون فيها. وعليه؛ فهم يحيون في ماهويّة تُزهق روح الإبداع، وتحنّط علاقة الإنسان بالحياة، وتقودهم إلى خارج العصر حسب عبارة أبي القاسم حاج حمد[2].

الجدير بالملاحظة هو أنّه قد تضافر العامل الدَّاخليّ المُشار إليه آنفًا مع عامل آخر خارجيّ يتمثّل في أنّ القوى الاستعماريّة لمّا يئست من جدوى البقاء على أرض المستعمرات تحت وطأة حركات المقاومة المُتصاعدة، وتزايد الخسائر المادّيّة والمعنويّة في صفوف جنودها والأضرار بمصالحها، قد آثرت الخروج من باب ما سُمِّي بالتّحرُّر الوطنيّ، وأحقّيّة الشُّعوب في تقرير المصير؛ لتعود من نوافذ الاستعمار الجديد النّاعم في أساليبه، والمغلّف بغلاف العولمة الّتي تروم سير كلّ الشّعوب في سبيل الفلك الواحد. وهو ما اصطلح على تسميته بالاستعمار الجديد، أو الإمبرياليّة، حيث الحروب بين أصحاب رؤوس الأموال على تبوُّؤ المراكز، واحتلال أكبر قدر ممكن من المستعمرات لضمان الأسواق واليد العاملة[3]. وهكذا، تمّ التّسويق لبعض المفاهيم، وتسويغ بعض الاصطلاحات من قبيل العلمانيّة والفردانيّة ففرضت أنماطًا من التّفكير تحبس الدّين في الزّاوية بوصفه عنصر تخلّف لا علاقة له بالفضاء العامّ ولا بالحياة المشتركة. وقد انبرت جهود كثيفة لكسر الكثير من البِنَى الذّهنيّة بدلًا من معالجتها ونقدها وتطويرها فأضحت الازدواجيّة هي الطّابع المُميّز للحياة في كلّ مستوياتها :العمرانيّة، والتّعليميّة، واللُّغويّة، والذّوقيّة.

1- مالك بن نبّي، شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق،1979 م، ص109 وما بعدها.

2- أبو القاسم حاج حمد، منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي ، بيروت، 2003م، ص 248.

3- هاري ماجدوف، الإمبرياليّة من عصر الاستعمار حتّى اليوم، مؤسّسة الأبحاث العربيّة ، 1981م، ص100 وما بعدها.

النّتيجة أنّ البرامج التّعليميّة صُنعت على عين تلك الدّوائر التّغريبيّة المنحازة لطرف من طرفيْ الثُّنائيّات المُتحكّمة في تصوّرات الأجيال وعقولهم على طرف آخر. فصرنا أمام تقليديّ مقابل حداثويّ، وتقدّميّ إزاء رجعيّ، ومُتقدّم مقابل مُتخلّف. والذّي زاد الطّين بلّة والمريض علّة أنّ تلك البرامج التّعليميّة قُدّت بشكل يُعمّق الفجوة بين طرفيْ الازدواج؛ ما أدّى إلى تفكّك الرّوابط الثّقافيّة والأُسريّة والاجتماعيّة، بصفة عامّة. إنّ التّغريب الأكاديميّ مرض حضاريّ مركّب؛ لأنّه ينبني في جوهره على سلب الذّات والتّأسيس له بأدوات تبدو علميّة منضبطة بمناهج وهي في حقيقة الأمر ترتكز على مقولة الكمّ بدلًا من الكيْف. ومِنْ ثَمَّ، تعمل الموجّهات التّغريبيّة على تشجيع نزعات الاستهلاك بدلًا من التّركيز على التّسلُّح بأدوات المعرفة المنتجة للعلوم والتّكنولوجيا.

جليّ، حينئذ، أنّ التّغريب يصدر عن معرفة استشرافيّة تعدّ التّعليم هو المجال الحيويّ الذّي يصنع العقول، ويُدرّب النُّفوس، ويبني الذّات الإنسانيّة. وعليه، فهو الفضاء الكبير الذّي يراهن عليه التّغريب الأكاديميّ. إنّ قوّة العامل الخارجيّ تزداد صلابةً عندما تتحوّل إلى قوّة ضاغطة تجعل الفكر السّياسيّ حارسًا لأهمّ أهدافها والثّقافة خادمة لأهمّ مراميها، وأهل الاجتماع أشبه ما يكونون بالمُمثّلين على مسرح التَّغريب.

لقد عرفت الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، بعد ازدهارها حينًا من الدَّهر جفّت فيه منابع الإبداع، وتغلّب فيه النّقل على العقل فأضحى الفعل انفعالًا، والإنجاز إعجازًا، والإبداع بدعةً، والحديث محدثًا، وانغلقت السّنّة الثّقافيّة. وفي اللّحظة ذاتها، نهضت القارّة العجوز من نومها تنفض عن نفسها غبار الأعصر المظلمة بالفقر والجهل والمرض والحروب الدّينيّة، وتلك الدّورة الحضاريّة اللّامُتكافئة دعت إلى تنظيم رحلات استكشافيّة، وبعثات علميّة من بلدان عدّة، مثل: مصر، والشّام، واليابان؛ فكانت الفرصة الذّهبيّة أمام صانعي القرار الغربيّ لإحكام أدوات التّحكُّم في مصائر الأجيال المُتلاحقة عبر وضع أُسُس التّغريب المتينة. وهكذا، عادت البعثات العلميّة بالتّبشير العميق بحضارة النُّور الذّي لا ينطفئ والتّي سبقت إلى التّقدُّم بأشواط.

مظاهر التّغريب

إنّ اجتماع العاملَيْن الرَّئيسَيْن: الدّاخليّ، والخارجيّ المذكورين آنفًا من شأنه أن ينجز برامج التّغريب الشّاملة لكلّ مستويات الاجتماع؛ إذ تدخّل الإعلام المرئيّ والمسموع لتثبيط العزائم والتّشكيك في القدرات، والإعلام يستعين بمحاورة الأكاديميِّين لإضفاء الصّبغة العلميّة والمعرفيّة على تلك البرامج المُبطّنة بالرّغبة في خذلان القِوَى المحلّيّة والوطنيّة على الجهود التّي تبذلها النّخبة في المدرّجات الجامعيّة من الدَّعوات المجّانيّة والمدفوعة الأجر لصناعة عقول مُغتربة. إنّ التّيّار التّغريبيّ يقوم أساسًا على استقطاب الفرد ولا سيّما إذا كان أكاديميًّا بارزًا لاقتناعه المسبق بقدرته على الإشعاع والتّأثير في من حوله. ولعلّ أبرز مثال على أولئك هو مجموعة المُثقّفين العرب ومنهم سلامة موسى القائل: « يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلحق بأوروبا، فإني كلّما ازدادت معرفتي بالشّرق زادت كراهيّتي له، وشعوري بأنّه غريب عنّي. وكلّما زادت معرفتي بأوروبا زاد حُبّي لها وتعلُّقي بها، وزاد شعوري بأنّها منّي وأنا منها»[1]. ومن ذلك المُنطلق الوجدانيّ، يظهر التّغريب في أوضح تجلّيّاته في المواقف مُمجّدة للغرب من جهة، ونابذة للتّراث نبذًا صريحًا بما فيه من إيجابيّات وسلبيّات، من جهة أخرى. كما يتجلّى في التّعصُّب للُّغات الأجنبيّة، وفي دعوات صريحة لمناصرة الفرنكفونيّة والأنجلوسكسونيّة، وفي اللّباس، وفي الأكل، والأغاني، والرّسوم، والمسرح، والسّنيما. ومِنْ ثَمَّ، يتمّ العزوف الكلّيّ عن الاهتمام بمشاغل الدّولة الوطنيّة والأمّة بصفة عامّة؛ لأنّ أهمّ مظهر للتّغريب هو إلحاق الشّلل بحركة التّفاعل الحيويّ مع مُكوّنات الهُويّة الأصيلة التّي تمثّل الخزّان الحضاريّ، والمولّد الحقيقيّ للقيم والأخلاق.

إذا كان التّثاقف بين الأفراد والجماعات أمرًا ضروريًّا وله فوائد لا تحصى، بحسب قانون التّأثير والتّأثّر، فإنّ التّغريب الأكاديميّ لا يولي لذلك الجانب أيّ أهمّيّة؛ لأنّه ينظر إلى المسألة بعين واحدة بوصفها عدم صلاحيّة التّراث للاستمرار، مقابل صلاحيّة الاستعمار لكلّ شيء. وتلك الرّؤية الأُحاديّة للقضايا جعلت من التّغريب الأكاديميّ يظهر بمظهر الجنين المُشوّه الّذي يُلحق الأذى بأوليائه، ولا هو يتمتّع بدوره بسحر الحياة، وجمال الوجود.

على تلك الّشاكلة تتمّ عمليّة هضم المنتجات الغربيّة، واستهلاك القيم المصاحبة

1- سلامة موسى، اليوم والغد، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، 1991م، ص16.

لها، فيتمّ التّرويج للكتاب الأجنبيّ، والفلم الوافد، والمجلّة العابرة للآفاق. ولا سّيما ما أحدثته الثّورة الاتّصاليّة من قدرة على ترويج الأفكار والرُّؤى والقيم الغربيّة المدمّرة لكلّ خصوصيّة وذاتيّة، والطّريف في ذلك كلّه أنّه يُروّج باسم الحُرّيّة، وضرورة الانفتاح.

مخاطر التّغريب الأكاديميّ

تتحدّد قيمة كلّ ظاهرة اجتماعيّة، أو ثقافيّة بحسب الحجم الذّي تحتلّه، وبحسب النّتائج المُترتبة عليها. ولمّا كان أهمّ رصيد تملكه المجتمعات العربيّة الإسلاميّة هو رأس مالها البشريّ، وما يحيل عليه من طاقات وذكاء وكفاءات، فإنّ ذلك الرّصيد ظلّ في مهبّ التّعرّض للاهتزاز والتّخريب. والملاحظ، أنّ التّغريب الذّي تسلّل من بوّابة الأكاديميا يعمل بكلّ حزم على تنفيذ مُخطّطاته، وإرساء قواعده عبر إنشاء مدارس ومعاهد عُليا تضمن له الاستمرار. وهي شواهد عينيّة تشهد له بالتّفوُّق والامتياز، بما يمتلكه من تجهيزات عصريّة، وإمكانات مادّيّة وتكنولوجيّة كبيرة. وهي طريقة تنسجم تمام الانسجام مع المُكافآت والتّحفيزات التّي ترصد لحُرّاس أهداف التّغريب؛ ما ينعكس سلبًا على المجتمع وعلى الانسجام بين الفئات المُتنوّعة والمُتباينة في الانتماء .

إنّ الخطر الجاثم على كاهل الأوطان والبلدان التّي تدعى بالسّائرة في طريق النُّمّو من التّغريب الأكاديميّ هو النّقلة النّوعيّة من الحوار بين الحضارات، حيث العلاقة الأفقيّة، ومعاملة النّدّ للنّدّ، إلى الغزو الحضاريّ المتجاوز لكلّ حدود الاحترام وتقدير الشّعوب ومالها من مقدّرات. إنّ فعل الغزو الذّي انجرّ عن تيّار التّغريب وجد له تحيّزًا مشخّصا من خلال الأجهزة الاصطلاحيّة والأرضيّة المفهوميّة التّي عملت الأوساط الأكاديميّة على الإقرار بها، وإجرائها ضمن البحوث والدّراسات. وذلك الجهاز النّظريّ سهّل على الغزو بسط نفوذه بشكل مُتعيّن. وهكذا، أصبح التّغريب شاملًا لعديد النّواحي: الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والثّقافيّة[1].

إنّ مُجتمعا تقوده نخبة متغرّبة يعيش على شفا جرف هارٍ، وتسود الفوضى مختلف أوساطه، ويعمّ التّوتُّر مختلف علاقته، فلا غرو حينئذٍ أن يعيش شباب

1- محمّد مصطفى هدّارة، التّغريب وأثره في الشّعر، في: مجلّة الأدب الإسلاميّة، مج 1، ع2، 1994م، ص7 وما بعدها.

الأُمّة الغربة المضاعفة والجفاف النّفسيّ ويشكو من ضعف الدّفق الرّوحي، فتكثر موجات الانتحار فيه، ويعصف الموت بحياة الشّباب الذّي يفترض فيه الأمل والطّموح وحبّ الحياة والتّعلّق بها، وتكتسحه موجات الهجرة غير النّظاميّة، وضمنها يلاقي الشّباب أبشع أنواع المصير، وتتعاظم موجات الإرهاب يومًا بعد يوم. وما ذلك إلّا تعبير عن إفلاس البدائل النّظريّة، وفراغ الطّروحات الفكريّة التّي روّجت لها النّخب الأكاديميّة المرتمية في أحضان التّغريب.

إنّ الذّي حدا ببعض الدّارسين لظاهرة التّغريب وأخطارها، مثل: طارق البشري، إلى القول: «يبدو لي أنّ الغلوّ يسمّى بدرجات شتّى، وأشكال مُتنوّعة، وعلى مراحل مُمتدّة أو متقطّعة، ما بقيت هيمنة التّغريب ولن يضعف إلّا بضعفها»[1]؛ هو أنّ الهيمنة التّي يمارسها التّغريب على المجتمعات المستهدفة بالعمليّة التّغريبيّة لا تدَع حركة النّموّ الاجتماعيّ يتطوّر بطريقة طبيعيّة؛ وإنّما تجعل حركة تلك المجتمعات تخضع لمبدأ ردود الأفعال. وردّة الفعل متوتّرة بطبعها ؛ لأنّها أبعد ما يكون عن التّعقُّل والحسابات المنطقيّة. فالأفكار التّي يزرعها التّغريب الأكاديميّ هي أفكار قاتلة على حدّ عبارة مالك بن نبيّ. وضرر تلك الأفكار القاتلة يتجسّد في خيانتها لنماذجها المثاليّة وتسرُّبها إلى مجتمع غير قادر على هضمها، وفاقد الحصانة ضدّها بما هي عناصر وافدة. «إنّ الأفكار الميّتة تنتقم بتجميد التّقدُّم والأفكار القاتلة تنتقم بتدمير التّقدُّم»[2]؛ لأنّها تقتل كلّ الخلايا الحيويّة في جسم القيم والأخلاق والأفكار، وتقتل العقل والنّفس على رأي شلتاغ عبّود[3].

فلا يمكن، على تلك الصُّورة، فصل التّيّار التّغريبيّ عن العلاقات الدّوليّة الجائرة التّي ترتكز على وفق علاقة الأطراف بالمركز؛ إذ يجنح ذلك التّيّار إلى تغليب الصّوت الواحد؛ لأنّه ينهض على تنفيذ إستراتيجيّة مُسطّرة مُسبقًا، ويروم تحقيق أهداف مقدّرة أوّلا وهي سَوْق العالم في اتّجاه واحد، ومعاملة مواطنيه على

1- طارق البشري، سيبقى الغلو ما بقي التّغريب، في: مجلّة العربي، ع 278، جانفي 82، ص 61.

2- مالك بن نبيّ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، تعريب محمّد عبد العظيم علي، دار الحكمة ، تونس، 1985م، ص 207.

3- شلتاغ عبّود، في المصطلح الثّقافي والتّغريب، في مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، ع 33، أفريل 2001، ص54.

أنّهم مجرّد أرقام يمكن تعليبهم والتّحكُّم فيهم مِن بُعْد. ولا أدلّ على ذلك من توجُّهات «هاملتن جب» في كتابه (وجهة الإسلام)، حيث يحرص على معرفة حركة تغريب الشّرق، والوقوف على العوامل الّتي تحول دون تحقيق ذلك التّغريب. وهو ما يتناغم تمامًا مع جهود علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في بادئ الأمر في دراسة المجتمعات البدائيّة لا من أجل الأخذ بأيديها ومساعدتها على تخطّي الصّعوبات؛ وإنّما لأجل التّمكُّن منها، والسّيطرة عليها كما بدا ذلك في أعمال «لفي بريل».

لقد تصدّى عمر فرّوخ ومصطفى الخالدي مُبكرًا في كتابيهما « التّبشير والاستعمار»[1] إلى فضح المُخطّطات التّغريبيّة العاصفة بِمُقدّرات الحضارة المعنويّة والأدبيّة. وعليه، يتّضح أنّ خطر التّغريب أشدّ وأنكى على الحضارة الإسلاميّة من الاستعمار المباشر؛ لأنّ العدوّ المباشر يُصرّح بوجوده، ويعلن عن نفسه. ومِنْ ثَمَّ، يسهل تجنّبه، أو التّصدِّي له. أمّا العدوّ الخفيّ المُبطّن فيصعب التّفطُّن إليه، ولا سيّما من عموم النّاس، وخاصّة إذا تغلّف بغلاف التّقدُّم والتّحضُّر والرُّقيّ، وتسرّب إلى المجتمع من بوّابات الجامعة الّتي يُفترض فيها الموضوعيّة العلميّة، ودقّة البحث الأكاديميّ. وكلّ ذلك يُسوّق تبعًا لتلقّي النُّخبة لتكوينها وتعليمها في الجامعات الغربيّة. وعلى تلك الصُّورة كان أغلب المُتخرّجين من الجامعات الغربيّة الأمناء على مصالح الغرب بالوكالة، وهم يقدّمون أنفسهم على أنّهم مُتشبّعون بالمناهج العصريّة، وطرائق التّفكير الجديدة، وهم في حقيقة الأمر ليسوا كذلك؛ لأنّهم أبعد ما يكون عن الفصل بين الذّات والموضوع.

التّغريب المعرفيّ ونقد الاستشراق

من أبرز المحاولات النّقديّة الّتي طاولت التّغريب الأكاديميّ والمعرفيّ ما تضمنه كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» (Orientalism) الصّادر في العام 1978م، وهو كتاب كان له أثر كبير، وإسهام عظيم في إرساء أُسُس نظريّة ما بعد الاستعمار ودعائمها. يعالج سعيد في ذلك الكتاب العلاقة بين الهيمنة الكولونياليّة والثّقافة، ويقطع فيه شوطًا طويلًا في تحليل الخطاب الاستشراقيّ مُبيّنًا أنّه ليس

1- عمر فروخ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار، منشورات المكتبة العصريّة، صيدا، 1953م، ص 25.

كما يدّعي مجرّد فرع معرفيّ حياديّ؛ بل تخترقه حتّى النّخاع علاقات القوّة والسُّلطة؛ فدراسات المُستشرقين عن (الشرق) خدمت ـ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ المُخطَّط الاستعماريّ الهادف إلى إخضاع الشُّعوب الشَّرقيّة لسيطرته واستغلالها لمصالحه[1]. وهكذا، يمضي سعيد ليبيِّن آليّات الهيمنة والاستحواذ عبر إعادة تشكيل الوعي العام من خلال الإرساليّات والجامعات والمعاهد الأكاديميّة. كذلك، سيفعل في كتابه «الثَّقافة والإمبرياليَّة» (Culture and Imperialism) الصّادر سنة 1993، حيث يقوم بتوسيع إطار التّحليل ليشمل أماكن أخرى أبعد من الشّرق العربيّ والشّرق الأدنى الإسلاميّ، كالهند على سبيل المثال، وبدراسة حركات المقاومة، كما تحدّث عن إرادة الآخرين لمقاومة إرادة الإمبرياليّة، إضافة إلى الأعمال المعارضة الَّتي قام بها مُثقّفون أوروبيُّون وأميركيُّون وعلماء لا يمكن عدّهم جزءًا من بِنْيَة شيء مثل الاستشراق[2].

لقد هَدَفَ سعيد من خلال كتاباته المُتعدِّدة إلى اختراق حُجب التَّقاليد الثّقافيّة الغربيّة الَّتي شُيّدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين. وعالجت كتاباته بشكلٍ مُوسَّع وعميق، الهيمنة الأكاديميّة الَّتي مارسها الغرب على الشّرق والجنوب، وركّزت تلك الكتابات بشكلٍ خاص على دراسة العلاقة بين الشّرق (وتحديدًا الشَّرق الأدنى الإسلاميّ والعربيّ) وبين الغرب (تحديدًا فرنسا، وبريطانيا، والولايات المُتَّحدة)، حيث تمّ رصد تلك العلاقة منذ غزو نابليون بونابرت لمصر في أواخر القرن الثّامن عشر، مرورًا بتناول المرحلة الاستعماريّة الرَّئيسة والَّتي تزامنت معها نشأة دراسات المستشرقين الحديثة في أوروبا، وانتهاءً بالهيمنة الإمبرياليّة البريطانيّة والفرنسيّة على الشّرق بعد الحرب العالميّة الثّانية، وظهور السَّيطرة الأميركيّة، في الوقت نفسه. وعن طريق ذلك التَّمركز الأوروبيّ، استطاع الغرب الكولونياليّ فرض هيمنته وسيطرته على بقاع بعيدة عنه مثل: أفريقيا، وآسيا، وأميركا اللّاتينيّة. تلك السّطوة من جانب المركزيّة الأوروبيّة ما كان لها أن تتمّ إلّا على حساب تهميش كلّ ما يقع خارج محيط دائرة الحضارة الأوروبيَّة، وما أنتجته تلك الأخيرة من

1- مجدي عز الدين حسن، نقد الكولونياليّة من منظور إدوارد سعيد، في: مجلة «الاستغراب»، ع12، صيف 2018.

2- إدوارد سعيد، السّلطة والسّياسة والثّقافة، ترجمة نائلة قلقيلي حجازي، دار الآداب، بيروت، 2008م، ص 208.

معـارف، ورؤى، وتصـوُّرات، وقيـم للموضـوع الكُلّـيّ المركَّـب مـن ثُلاثيّـة الإنسـان، والعالـم، واللـه[1].

على النَّسـق المعرفيّ نفسـه، سـنجد أنّ التَّغريـب الأكاديميّ أخـذ مسـاحة مركزيّـة في أعمـال إدوارد سـعيد، بوصفـه العامـل الأبـرز والآخـر فـي صناعـة الغربـيّ بيـن النّخـب العربيّـة والإسـلاميّة في الشَّـرق. وفـي سـياق سـعيه إلى ربـط العمليّـة التّغريبيّـة بالمنطـق الأسـاس الّـذي يحكـم الغـرب حيـال الشّـرق راح يبيِّـن كيـف قـام التّسـويغ العقلـيّ للإمبرياليَّـة على مـا يُسـمّى (عـبء الرَّجـل الأبيـض)، وعلـى مَهمّـة نشـر الحضـارة، ونشـر قيـم التَّحضُّـر والتَّمـدُّن، وحقـوق الإنسـان، واليـوم أصبـح يتمثَّـل فـي مـا يُدعـى (الحـرب علـى الإرهـاب) و(النّضـال مـن أجـل الدّيمقراطيّـة)، ويستشـهد سـعيد بمـا ورد فـي بعـض خطابـات المتعاقبيـن علـى رئاسـة الولايـات المتّحـدة الأميركيّـة، مـن أنّهـم يُقاتلـون لأجـل نصـرة الخيـر فـي مقابـل الشّـرّ، وأنّهـم لا يهدفـون إلّا لنشـر القيـم الدِّيمقراطيّـة، القيـم الأميركيّـة، في كلّ أنحـاء العالـم. والخلاصـة أنَّهـم لا يتحدّثـون أبـدًا عـن الهـدم والتّدميـر، ولكنّهـم يتحدّثـون فـي الحقيقـة عـن إهـداء التَّنويـر، والحضـارة، والسّـلام، والتَّقـدُّم للنّـاس[2].

مثـل ذلـك التَّطـوُّر فـي مسـار العلاقـة الهيمنيّـة بيـن الغـرب الاسـتعماريّ، والشّـرق العربـيّ الإسـلاميّ سـيفضي إلى ما يُسـمّيه إدوارد سـعيد بـ (التّشـرنق العرقـيّ الأوروبـيّ). وهـو حالـة غربيّـة لا شُـعوريَّة كامنـة خلـف طرائـق البحـث الغربـيّ ومناهجـه والّتـي أدَّت، فـي مُحصّلتهـا النّهائيّـة، إلـى حشـر كلّ الثّقافـات غيـر الأوروبيّـة، والأدنى منهـا، إلى موقع مـن مواقـع التّبعيّـة. وهكـذا، تبـدو العمليّـة التّغريبيّـة حاضـرة فـي صميـم الاستشـراق، وتحتـلّ حيّـزًا يُماثـل تمامًـا موقـع المسـتعمرة المفيـدة للنُّصـوص والثَّقافـة الأوروبيّـة[3].

فـي ذلـك المقـام، يـوازي بين نشـأة دراسـات الاستشـراق من جهـة، وبداية الاسـتعمار الأوروبـيّ للعالـم، مـن جهـة أخـرى. ويـرى أهمّيّـة الـدَّور الكبيـر الّـذي قـام بـه الباحثـون الغربيُّـون المشـتغلون فـي حقـل الاستشـراق فـي تعزيـز مصالـح الغـرب الكولونيالـيّ

1- مجدي عز الدين حسن، نقد الكولونياليّة من منظور إدوارد سعيد, مصدر سابق.

2- إدوارد سعيد، الثّقافة والمقاومة، ترجمة علاء الدين أبو زينة، دار الآداب، بيروت، ص 166.

3- مجدي عز الدين حسن، نقد الكولونياليّة من منظور إدوارد سعيد, مصدر سابق.

وإدامته[1]. ثمّ يضرب مثلًا بما قاله ماكولي عن التربية الهنديّة في العام 1835م في محضر اجتماع رسميّ: «ليس لي أيّ معرفة لا بالسنسكريتيّة ولا بالعربيّة، ولكنّني فعلت ما بوسعي لتكوين تقويم دقيق لقيمة كلّ منهما. لقد قرأت ترجمات لأشهر الأعمال العربيّة والسنسكريتيّة. ولقد تحدثت، هنا وفي الوطن، مع أُناس مُتميّزين بكفاءاتهم في اللُّغات الشّرقيّة؛ بيد أنّني ما وجدت واحدًا منهم بمقدوره أن يدحض حقيقة كون رفّ واحد من مكتبة أوروبيّة جيّدة يساوي كلّ الأدب المحلّي للهند والجزيرة العربيّة. إنّ السُّموّ الجوهريّ للأدب الغربيّ محطّ الإقرار التّام فعلًا من قبل أولئك الأعضاء الّذين يشكّلون اللّجنة، والّذين يدعمون الخطّة الشّرقيّة في التّعليم. وليس من المبالغة أن نقول: إنّ كلّ المعلومات التّاريخيَّة المجموعة في اللُّغة السنسكريتيّة أقلّ قيمة ممّا قد يوجد في تلك المُلخّصات المُبتذلة والمستخدمة في المدارس الإعداديّة في إنكلترا، وفي كلّ فرع من فروع الفلسفة الأخلاقيّة والمادّيّة نجد أنَّ المكان النّسبيّ لهاتين الأُمّتين هو نفسه تقريبًا»[2].

ذلك القول هو في الواقع ـ كما يقول سعيد ـ دليل على التَّشرنق العرقيّ؛ بل وأكثر من ذلك؛ لأنّ رأي ماكولي ما هو إلَّا تصوُّر غارق في صميم التّشرنق العرقيّ وذو نتائج مؤكّدة؛ إذ إنّ ماكولي كان يتحدّث من موقع السُّلطة، حيث كان بوسعه ترجمة تصوُّراته إلى قرار يأمر سكّان شبه قارَّة بأسرها أن يذعنوا للدّراسة بلغة غير لغتهم الأُمّ. وهذا ما حدث في حقيقة الأمر[3].

يقدِّم سعيد مثالًا ثانيًا، من كتاب إيريك ستوكس: «النّفعيُّون الإنكليز والهند»، حيث تحدّث ستوكس عن أهمّيّة الفلسفة النّفعيّة للحكم البريطانيّ في الهند. يكتب سعيد مُعلّقًا: يتعجب المرء في كتاب ستوكس من الكيفيّة التي تتمكن بها زمرة قليلة من المفكّرين نسبيًّا، من بينهم بينتام وجون ستيوارت ميل، من الإتيان بالحُجج لتعزيز مذهب فلسفيّ واستكماله لحكم الهند، مذهب ينطوي في بعض جوانبه على تشابه لا يرقى إليه الشّكّ مع آراء آرنولد وماكولي في الثّقافة الأوروبيّة من أنّها أسمى من كلّ ما عداها. فها هو جون ستيوارت ميل يحتلّ اليوم

1- إدوارد سعيد، العالم والنّصّ والنّاقد، ترجمة: عبد الكريم محفوض، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 2000م، ص 55-56.

2- المصدر نفسه، ص17.

3- المصدر نفسه، ص 17-18.

بين (نفعيِّي البيت الهنديّ) منزلة ثقافيَّة مرموقة إلى الحدِّ الَّذي جعل آراءه عن الحرّيّة والحكومة التَّمثيليَّة تدور على ألسنة أجيال وأجيال على أنّها المقولة الثّقافيَّة اللِّيبراليّة المُتطوّرة حول تلك القضايا. ولكن عن ميل كان على ستوكس أن يقول ما يلي: (لقد أفاد جون ستيوارت في كتيبه عن الحرّيّة قائلًا بدقّةٍ مُتناهية أنَّ مبادئ الحرّيّة مقصود تطبيقها حصرًا على تلك البلدان الَّتي تطوّرت تطوُّرًا كافيًا في مضمار الحضارة ليكون بمقدورها تسوية شؤونها بالبحث العقلانيّ. وعلاوةً على ذلك، كان مخلصًا لأبيه في تشبُّثه بالاعتقاد أنّ الهند ما كان بالإمكان حكمها وقتذاك إلَّا بشكل استبداديّ. ولكن على الرُّغم من أنّه كان يرفض، هو نفسه، تطبيق تعاليم الحرّيّة والحكومة التّمثيليّة في الهند، فإنَّ حفنة ضئيلة من اللِّيبراليّين الرَّاديكاليّين وجمهرة متكاثرة من المُثقّفين الهنود لم يضعوا أمثال تلك القيود). وكما يقول سعيد، فإنّ لمحةً خاطفةً على آخر فصل في «الحكومة التَّمثيليّة» – ناهيك عن التَّطرُّق إلى المقطع الوارد في المجلَّد الثَّالث من «مقالات وبحوث» ، حيث يتحدَّث عن تغييب الحقوق بالنّسبة إلى البرابرة – توضح بمنتهى الجلاء رأي ميل الّذي قال فيه أنّ ما كان عليه أن يقوله عن ذلك الأمر لا يمكن تطبيقه بالفعل على الهند، والسَّبب بالأساس أنّ رأي ثقافته بحضارة الهند هو أنّها لم تكن وقتها قد بلغت بعد درجة التَّطوُّر المطلوب[1].

إنّ تاريخ الفكر الغربيّ بأسره إبَّان القرن التَّاسع عشر، حسب ما يذهب سعيد، مليء بأمثال تلك التَّخرُّصات والتّمييزات بين ما هو مناسب لنا (أي الأوروبيِّين)، وما هو مناسب لهم (غير الأوروبيين)؛ إذ إنَّ الأوائل مُصنّفون بأنّهم في الدَّاخل، في المكان الصحيح، مألوفون، منتمون، وباختصار فهم فوق، والآخرون مُصنّفون على أنّهم في الخارج، ثنوى، شواذ، تُبّع. وباختصار، فهم تحت. فمن تلك التّمييزات الّتي حظيت بسطوتها من خلال الثّقافة، ما كان بوسع أيّ امرئ أن يتفلَّت منها حتى ماركس نفسه. إنَّ النَّظرة للثّقافة الأوروبيّة على أنّها المعيار الممتاز حمل معه زمرة مرعبة من التّمييزات بين ما لنا وما لهم، بين الملائم وغير الملائم، وبين الأوروبيّ وغير الأوروبيّ، وبين الأعلى والأدنى، فتلك هي التّمييزات الّتي يقع عليها المرء في أيّ مكان في موضوعات من أمثال علم اللُّغة، والتّاريخ، ونظريّة

1- إدوارد سعيد، العالم والنّصّ والنّاقد، مصدر سابق، ص 18.

العرق، والفلسفة، والأنثروبولوجيا، لا بل وحتّى البيولوجيا[1].

ذلك هو الوجه القبيح للكولونياليّة الثّقافيّة والفكريّة، والّذي قام سعيد بتعريته في مجمل كتاباته، وهو يرى أنَّ الكولونياليّة الثَّقافيّة نجحت في دمج منظور المستعمِر (بكسر الميم) في رؤى الشّعوب المستعمَرة، حتّى شعرت تلك الأخيرة بأنّها غير قادرة على فعل أيّ شيء دون وصاية الأوّل ودعمه، وفهمت كذلك أنّ التَّشريع لا ينبغي له أن يصدر من ثقافة مجتمعاتها وقيمه، ولكن من مجتمع الأوّل وقيمه هو[2].

التَّغريب الأكاديميّ في دراسات ما بعد الاستعمار

إذا أقررنا أنَّ دراسات ما بعد الاستعمار مرتبطة بدقَّة، بواقعة تاريخيَّة محدّدة؛ أي الماضي الاستعماريّ للعالم الغربيّ، فإنّ تلك الدِّراسات ستأخذ مساحة واسعة في بيان وقائع التَّغريب الأكاديميّ والمعرفيّ. وفي المقابل، إذا رأينا أنَّها حقًّا حجَّة فرعيّة، لنقد استبانات العلوم الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة، فسنلاحظ إلى أيّ درجة لا تني تتجدّد، بمقتضى عقل الزّمن، أو المسائل الّتي تنشأ آنذاك، أعتقد أنّ الإجابة ستختلف. فإحدى النّقاشات الضّخمة الّتي دارت داخل دراسات ما بعد الاستعمار في البلدان الأنكلوسكسونيّة ، خلال العقد الأول من هذا القرن، كانت لمعرفة ما إذا كانت الإمكانات النّقديّة والمردود الفكريّ لدراسات ما بعد الاستعمار، تستطيع أن تحافظ على بقائها مع العولمة، ومع التّغييرات الكبيرة، لتوازن القوى في العالم؛ بحيث يبدو أنَّ التَّوازن الاستعماريّ لم يعد من مُكوّنات الواقع؛ إذ إنَّ عددًا من مُفكّري مرحلة ما بعد الاستعمار لاحظوا ذلك بأنفسهم وتوقَّعوا أن تكون استبانات ما بعد الاستعمار، في طريقها إلى الاختفاء، وأنّها ستخلي مكانها، قريبًا، لشيء آخر. ينبغي أن نرى جيدًا، من هذا الموقع، أنّ هناك فكرة ما نسميها العولمة الّتي هي ظاهرة جذريّة بِجِدّتها. وعليه، فإنّ النّقاش في تلك المسألة، أبعد من أن يقفل. فالقرابة بين الاستعمار، أو بالأحرى مرحلة السّيطرة الاستعماريّة، وعولمة اليوم قد أوضحها عدد كبير من المُحلِّلين. والعولمة ـ أستخدم الكلمة الإنكليزيّة ـ globalisation ليست سوى التَّمدُّد الأقصى لما كانت عليه إمبرياليّة المرحلة

1- إدوارد سعيد، العالم والنّصّ والنّاقد، مصدر سابق، ص 18-19.

2- إدوارد سعيد، القلم والسيف، حوار دافيد بارساميان، ترجمة توفيق الأسدي، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، 1998م، ص 134.

الاستعماريّة. وبالتأكيد لا يزال هناك الكثير، مما ينبغي فعله لنفهم العالم الّذي نعيش فيه اليوم، بالأدوات الّتي كانت بحوزتنا لشرح نظام العالم منذ قرن. ولكن هذا النقاش لم يقفل مرّة أخرى، فدراسات ما بعد الاستعمار، هي بصدد دمج عدد كبير من الأبحاث (هي في الحقيقة مرتبطة بعمق بما كانت عليه في البداية) الّتي تأخذ في الحسبان ظاهرات معاصرة جدًّا؛ إذ إنَّ عددًا من فروع دراسات ما بعد الاستعمار، غيّرت اسمها من «ما بعد الاستعمار» (postcolonial) ليصير «عابر للاستعمار» (transcolonial). ويبدو أنّها تطوّر استبانات مُتمحورة حول مسألة الهيمنة، باتّجاه استبانات تتناول أكثر حقائق التّنقل، والتّبادل، والتّعايش، وتدفُّق المهاجرين. إنَّنا نسير باتجاه اندماج (fusion) ذينك الحقلين: دراسات ما بعد الاستعمار ، ودراسات العولمة. ويمكن أن نفكّر في ذلك الوضع المُتحرّك، أنَّ دراسات ما بعد الاستعمار، في طريقها إلى التَّحوُّل باتّجاهٍ يعطيها عقد إيجار غير محدود، أو على أيّ حال، بأفق بعيد جدًّا. والمسألة بعد ذلك هي في معرفة إذا ما زلنا نستطيع تحديد حقل دراسات مُتقلّب، إلى ذلك الحدّ. والصَّحيح أنّ دراسات ما بعد الاستعمار، تتطوّر منذ البداية في مناخ مُتعدّد الاختصاصات (transdisiplinaire)، وفي جوّ جدل مستمر، وكانت تطمح لأن تكون محلّ استبانات متقاطعة، ذات نزعةٍ لاستثمار حقول الدِّراسات من الدَّاخل، ولفتحها وخلع إطاراتها. هناك شيء مُتكافئ مع الدِّراسات من النَّوع نفسه. ويمكن عدُّها حقل دراسات خاصّ، ونستطيع أيضًا عَدّ مسألة النّوع، تطرح في كلّ ميادين الدّراسات، وأن، ببساطة، هناك في كل حقل دراسة، نمط من الاستبانات يجعل تكامليّة الحقل المعنيِّ، في موضع اتّهام. وينبغي الاعتراف أنّ دراسات ما بعد الاستعمار نفسها، تتبدّل بطريقة أخرى، هي على حدود المعقول: نرى راهنًا من دراسات ما بعد الاستعمار، ما يُطبّق في الكرة الأرضيّة على مناطق لم تعرف أبدًا الاستعمار، مثل: الشّرق الأقصى الصّينيّ، أو اليابانيّ. وكان أن أُنشئت نشرة في جامعة استوكهولم «أوروبا ما بعد الاستعمار» وهي تُعنى بأوروبا الوسطى والشّرقيَّة، وتطبّق دراسات ما بعد الاستعمار، على مراحل من التّاريخ، هي خارج هذا الحقل كلِّيًّا. إنَّك تجد دراسات ما بعد استعمار، تُطبّق على العصور القديمة، وفي مجالات لم يعد لها علاقة تَمَاهٍ مع ما عنته أصلًا، وعلى سبيل المثال، دراسات إنجليزيّة ما بعد استعماريّة. ولديك نزعة ما بعد الاستعمار، في الدّراسات البصريّة، وفي دراسات

الإعلام. وعلى ذلك الشّكل، فإنّ الدِّراسات ما بعد الاستعماريّة، تملك كلّ المستقبل الّذي يمكن أن تطمح إليه[1]!

تظلّ العلاقات بين الثّقافات والحضارات موضوعًا جذّابًا للتّفكُّر والتّأمُّل. وإذا تنوّعت ضروب الاستعمار، عسكريّ وسياسيّ، فإنّ الاستعمار الأكاديميّ والثّقافيّ أكثر انتشارًا بين النّاس؛ لأنّه يسعى إلى السَّيطرة على العقول والأذواق، ويهدف إلى تغيير العلاقات بين الشُّعوب والدُّول، وعندئذ تسهل الهيمنة، وبسط النُّفوذ. وعندما تُغرس القابليّة للاستعمار في الأنفس والأذهان اطمأنّ الاستعمار على مصالحه دون إسالة الدّماء ، وتكبّد الخسارات المادّيّة و المعنويّة.

إنّ الاستعمار الأكاديميّ يهدف إلى ترويج برامجه وسياساته باسم العلم والمعرفة والتّقدُّم. وبالفعل، يعمل على غرس أدوات إنتاج المعرفة ومناهجها فيتزيّا بزيّ العلم والثّقافة والفكر. ويتحوّل إلى ظاهرة ناعمة ومرغوبة. لقد عمد الاستعمار الأكاديميّ إلى ترويج فكرة أساسيّة هي أنّ العلم مسألة مشتركة بين النّاس ولا جنسيّة له، كما أنّ طريق التّقدُّم بين الخليقة واحد فالإنسانيَّة ذات مصير مشترك وقد عمل الجنرال نابليون في حملته على مصر على التّركيز على دور النّخبة وأثرها في تغيير أنماط التّفكير والسّلوك والذّوق. وكذلك فعل الإسكندر قبله حين عمل على ترويج الثّقافة اليونانيّة في المستعمرات اليونانيّة. والملاحظ في مثل ذلك الاستعمار الثّقافيّ هو أنّه لا يرتبط بالضّرورة بقوّة الدّولة الغازيّة، فقد تتدهور أصول الدّولة المتعاظمة ولكن أثر النّخبة يتواصل تأثيرها في التّفكير. فالأثر الثّقافيّ يستمرّ بعد زوال التّأثير العسكريّ؛ لأنّه أشدّ بقاءً واستمرارًا وأكثر دوامًا من السّيطرة على الأرض، ولأنّ الثّقافة تستبدّ بالنُّفوس والعقول. والمرء على ما يفكّر فيه والعقل هو كلّ شيء، وبه فضّل الإنسان على كلّ المخلوقات.

إنّ الاستعمار الثّقافيّ يستهدف قولبة العالم في أنماط وقوالب تضمن تدجين الشُّعوب لغاية سَوْقها في وجهة أعدّت سلفًا من الدّوائر الإمبرياليَّة العالميّة، ولا فكاك للشّعوب التّائقة إلى التّحرُّر من العمل على إنتاج معرفة ذات مُميّزات مخصوصة تضمن الحفاظ على الخُصُوصيّة والهُويّة من أجل النّفاذ الى إحداث نظام من خارج النّظام العلميّ المُسيطر؛ وإذ تبدو تلك المَهَمّة مُتشعّبة وصعبة ولا

1- حوار مع المؤرّخ الفرنسيّ جاك بوشيباداس، ترجمة: صلاح عبد الله- في: مجلّة الاستغراب، ع12 ، صيف 2018.

سيّما في واقع بسطت فيه الثّورة الاتّصالية يديْها على كلّ المجالات الثّقافيّة، فإنّ الإرادة في كسر الطّوْق إذا بُرمج لها تربويًّا وثقافيًّا فإنّ عنصر الزّمن كفيل بتحقيقها وانظر إلى تجارب ألمانيا واليابان والصين كيف استطاعت نحت معالم الشَّخصيّة الوطنيّة، فالأدب والفكر والفلسفة هي عوامل رئيسة لإنتاج الهُويّة والخُصُوصيّة. وقد اهتمّ «ميشال فوكو» بقيمة الإمبرياليّة الثّقافيّة وسلطتها في تغيير معالم الحقائق، وإعادة تشكيل الواقع فعديد الموضوعات يتمّ إنشاؤها وإعادة إنشائها من خلال علاقات السُّلطة المُحدّدة ثقافيًّا فهي الَّتي تطبع بقيّة السُّلطات الأخرى.

لقد عمل الاستعمار الأكاديميّ على تلميع صورته باسم فلسفة الأنوار من أجل التَّوغُّل في النُّفوس والعقول ومعاداة الظّلاميّة بوصفها مصنوعًا استعماريًّا في حاجة إلى مراجعة نقديّة وإلى مزيد التّمحيص؛ لأنَّها كلمة حقّ أُريد بها المزيد من الهيمنة، وبسط النُّفوذ. وهو ما يتجلّى في تنفيذ البرامج التَّعليميّة، وترويج السّلع. ولا فرق بين بضاعة اقتصاديّة، أو بضاعة ثقافيّة في ميزان الرَّأسماليّة واللّيبراليّة. فالدِّيمقراطيّة الأمريكيّة هي الوجه الآخر للسّلاح المُدعّم للاستعمار في فلسطين المُحتلّة. وانظر إلى فعل الاستعمار الأكاديميّ في الأوساط الإفريقيّة كيف عمل على محو مُكوّنات الثّقافة ومحتويات المعرفة، مثل: إبادة اللُّغات، وطمس معالم الفنون الأصيلة والأفكار الأصليّة؛ لتشويه الهُويَّة، وطمس الحقائق. وما زالت النّيوليبراليّة تستنبط الوسائل الكفيلة بالتّلاعب بالعقول عبر صناعة ما يسمّى بالرّأي العام العالميّ عبر مراكز الدّراسات المُتخصّصة وترويجها عبر المؤسَّسات العالميّة.

لقد تلون الاستعمار الأكاديميّ بألوان عدَّة وتسمّى بمُسمّيات متنوّعة، وآخر مظهر له هو النِّيوليبراليّة. وما ذلك إلَّا عزف على معنى الجدّة، ولعب على وتر التّطوُّر، طمعًا في الإقناع بمشاريعه التّنمويَّة في مجالات: الاجتماع، والاقتصاد، والسِّياسة، والثّقافة، والإعلام. وما زال الاستعمار الأكاديميّ يعمل على تصدير مشاريعه في البلدان النَّامية كَوْن الهشاشة الَّتي تسمّي مجالات الحياة في تلك المجتمعات.

لقد أدرك الاستعمار الأكاديميّ منذ وقت مبكر أنّ التّماسك الثّقافيّ لدى الشّعوب هو صمّام الأمان الحامي لكلّ أُمّة والضّامن لسلامة مُستقبلها. ومِنْ ثَمَّ، كرّست الجهود لإعداد برامج تعمل على بلبلة المفاهيم، وتغيير الأفكار. وبالأفكار يمكن التّحكُّم بالمجتمعات مِن بُعْد، وبأيسر الجهود والوسائل.

إنّ الجديـر بالملاحظـة هـو أنّ تصديـر الاسـتعمار الأكاديمـيّ أصبـح جـزءًا مـن المُقـرّرات الرّسـميّة لـدى الدّوائـر الدّوليّـة العالميّـة، وقـد سـاعدت الشّـبكة العنكبوتيّـة على تعميـق التّفـوُّق الثّقافيّ الغربـيّ. فـلا غـرو فـي أن تلمّـع صـورة الحـروب والإبـادة العرقيّـة باسـم مقاومـة الإرهـاب، أو التّعصُّـب الدّينـيّ.

الواضـح أنّ التّوغُّـل فـي الأوسـاط الثّقافيّـة باسـم التَّسـامح الدّينـيّ، أو الحـوار بيْـن الحضـارات، أو الثّقافـات هـو الميْسـم الأسـمى للإقنـاع بـأنّ كلّ مُعـرض عـن ذلـك الحـوار، أو دعـوى التّسـامح يُعـدُّ رجعيًّـا غيـر مواكـب لحركـة التّقـدُّم والتّحضُّـر.

إنّ الحـلّ الجوهـريّ أمـام المجتمعـات النّاميـة هـو تطويـر التّعليـم عبـر إنتـاج البرامـج والمقـرّرات التّعليميّـة والمُخطّطـات الثّقافيّـة الّتـي تقـاوم الإمبرياليّـة وتتصـدّى لمشـاريع الغـرب الاسـتعماريّة المعمّقـة للتّبعيّـة والانسـلاب. فعمليّـة فـكّ الأسـر مـنْ قيـود العولمـة والاسـتعمار الأكاديمـيّ؛ إنّمـا تتـمّ بمقاومـة الأنمـوذج السّـائد بالقـوّة والعلاقـات الجائرة عبـر التّعامـل القسـري. إنّ إنتـاج المعرفـة هـو الحـلّ الأسـاس الموصـل إلـى التّحـرُّر عبـر تحريـر العقـول. فالإنسـان الفعّـال والمجتمـع الحـي هما الحـلّ الجذريّ لصناعة مسـتقبل آمـل، و سـعادة منشـودة.

آفاق جديدة للتّغريب الأكاديميّ

لمّـا كان الوجـه الحقيقـيّ للغـرب مخفيًّـا، كان دعـاة الإصـلاح بالاسـتفادة مـن الغرب معذوريـن فـي عَدّهـم طريـق التّقـدُّم واحـدًا يتمثّـل فـي الإصـلاح الزّراعـيّ والتّنظيمـات السّياسـيّة، والفصـل بيـن السّـلطات، وتحديـد المناهـج التّربويّـة والتّعليميّـة. ولكـنّ دعـاة التّغريـب غيـر معذوريـن؛ لأنّ حقيقـة أمـر الغـرب قـد أصبحـت واضحـة جليّـة، وعمادهـا حـركات توسُّـع، وإرادة هيمنـة، ورغبـة فـي التّفـوّق لقيـادة العالـم بالقـوّة والغطرسـة. وهكـذا ، تتعاظـم المسـؤوليّة علـى مـن أدرك الحـقّ، وأغضـى عنـه.

لقـد كان حريًّـا برجـال التّربيـة والتّعليـم فـي أرقـى درجاتهمـا أن يحلّلـوا أوجـه الغـرب الإيجابيّـة، وأن يميطـوا اللّثـام عـن عيوبـه ومسـاوئه، بـدلًا مـن الانضـواء فـي حمـلات دعائيّـة وإشـهاريّة فجّـة. كمـا كان عليهـم أن يكشـفوا عـن حقيقـة أفـكار ومبـادئ نمـت وترعرعـت فـي تربـة ثقافيّـة مختلفـة، وفـي فضـاء حضـاريّ مُغَايـر. والتُّـراث الـذّي ظـلّ هدفًـا لأصحـاب الاسـتعمار الأكاديمـيّ، هـو فـي حقيقـة الأمـر، صمّـام أمـان، وملجـأ آمـن لمـن أراد التّـزوُّد منـه، ومراجعـة مـا بـدا غيـر ملائـم للعصـر. لا أن يرمـى بـه عـرض

الحائط كما يدّعي التّغريبيُّون جملةً وتفصيلًا، وأنّى لهم ذلك! فالتُّراث ليس بضاعة مادّيّة؛ فمنه ما هو مادّيّ، ومنه ما هو غير مادّيّ، ولا مرئيّ. وهو مخزون نفسيّ يشكّل أعمارًا وماضيًا يعيش حيًّا نابضًا في العصر. وأكثر من ذلك أنّ محاولات التّقدُّم الّتي تنهض على فهم التّراث وإعادة فهمه هي أكثر تجذُّرًا، والأكثر تأثيرًا في المستقبل. فلا حاضر دون ماض، ولا مستقبل دون حاضر.

يبدو أنّ أفضل طريق لمقاومة التّغريب؛ إنّما هو تشجيع حركة التّعريب نشرًا للّسان العربيّ للقارئ بما يفكّر فيه الآخر حتّى تتوسّع دوائر الاطّلاع، والحوار ، والنّقد.

لمّا ذبُل العطاء الفكريّ في الحضارة الإسلاميّة، وسُدّت منافذ التّفكير، وأعلن عن غلق أبواب الاجتهاد عمّ التّقليد الّذي لا يشهد له العقل بالتّأييد، على حدّ عبارة أبي حامد الغزالي في كتابه المستصفى من أصول الفقه. وعندئذ آذنت الدّورة الحضاريّة بالانتقال إلى الضّفّة الشّماليّة والغربيّة من الكرة الأرضيّة. وبتصاعد تلك الحضارة عمل مؤسّسوها على إرساء دعائم تضمن استمرارها في التّاريخ. ولعلّ من أخطر تلك الدّعائم التّعويل على النّخب الأكاديميّة والتّرويج الفعّال لكلّ ما من شأنه أن يخرّب بناء الذّات الإنسانيّة في مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة المعاصرة. ودعوى ذلك وحدة المصير الإنسانيّ المشترك، وأنّ طريق التّقدُّم واحد، وأنّ الحداثة واحدة، وأنّها تيّار جارف يدكّ كلّ من عارضه، وأنّ الماضي ومكوّناته أمور بالية تشدّ إلى الوراء، وتعوق حركة التّقدُّم. وكلّ ذلك دعاوى مجانبة للصّواب؛ لأنّ الحضارة الغربيّة ذاتها تعود إلى قديم الحضارة اليونانيّة، وأنّ الماضي هو الحقل الثّقافيّ والفكريّ والمعرفيّ الذّي لا ينضب، وأنّ الحداثة حداثات، وأنّ اشتراك الإنسانيّة في كثير من عناصر المصير المشترك لا يقضي بحال على الخُصُوصيّات الثّقافيّة والانتماءات المُتنوّعة والمختلفة. وهكذا ، يتبيَّن لنا أنّ التّغريب الأكاديميّ

هو مجرّد أداة تحجب فاعليّة الرّغبة في الهيمنة والسّيطرة؛ ما يناقض جوهريًّا العمل الأكاديميّ الّذي يقوم أساسًا على الموضوعيّة، والجدّيّة، والبحث الدّقيق، والتّمحيص العميق من أجل إزاحة الحُجب عن الحقائق المخفيّة.

الجدير بالملاحظة هو أنّ المجتمعات قد شهدت تحوّلات اجتماعيّة وسياسيّة وثقافيّة، هو ما يستوجب تحوّلًا موازيًا في البرمجة التّربويّة والتّعليميّة. ولكنّ النّزعة الاستعماريّة لدى الدّول القويّة تعمل باستمرار على عرقلة تلك المواكبة؛

لإبقاء الهُوّة عميقة بين البِنَى الاجتماعيّة والبنى الفكريّة والثّقافيّة. إنّ ألدّ أعداء النّزعات الاستعماريّة هو المعرفة التّي تنتجها البرامج الدّراسيّة والتّعلميّة الثّوريّة التّي تتجاوز التّلقين إلى التّنشيط والتّفاعل مع المُتلقّي، حيث تستبدل العلاقات العموديّة بالعلاقات الأفقيّة. وبذلك، يتمّ تجاوز ما يسمّيه «باولو فرايري» بالتّعليم البنكي[1]. إنّ ديدن التّغريب الأكاديميّ هو بثّ الجمود في شرايين البرامج التّعليميّة لفسح المجالات أمام تركيز نماذج بديلة، يُعمل على هضمها واستيعابها وتقديمها على أنّها مُثُل عُليا يجب الاقتداء بها. وتلك الفلسفة النّاهضة على المركزيّة، وحُبّ الهيمنة تعمل على تنفيذ مُخطّطات التّكييف الخاصّة بالعقول، والأذواق، وأنماط السُّلوك. وبذلك، تتحكّم في الصّيرورة الاجتماعيّة والتّاريخيّة للشّعوب الضّعيفة اقتصاديًّا وسياسيًّا، فهي تحرّكها بأشبه ما يكون بالتّحكّم مِنْ بُعْد. وقد أسهمت الثّورة الإعلاميّة إسهامًا فعّالًا في تيسير السُّبُل أمام تلك المُخطّطات.

إنّ المُتأمّل في الأوضاع التّعليميّة داخل المؤسّسات التّربويّة والأكاديميّة في المجتمعات النّامية يجدها أقلّ رغبة في التّجدُّد والمراجعة؛ لأنّها مجلوبة، أصلًا، من دوائر مطبوعة بالعلاقات الجائرة. فتلك البرامج والمناهج يقع فرضها بين تبادلات الأخذ والعطاء، وضمن معاهدات واتّفاقيّات العمالة والاقتراض. وبمجرّد الحديث عن تلك العلاقات تفقد البرامج التّعليميّة صبغتها الفعّالة في بناء الشّخصيّة الوطنيّة المُتميّزة بروح الاستقلال، وإرادة الخلق والإبداع؛ لأنّ تلك الرّوح لا تقبل التّبعيّة، ولا تعترف بالمُحاكاة. وما تُعانيه تلك المناهج في ظلِّ تلك العلاقات الجائرة هو افتقارها إلى المنزع الإنسانيّ المُتشبّع بالقيم الكونيّة. لذلك، نرى المُتعلّمين على قدر كبير من السّطحيّة والفراغ الأخلاقيّ؛ لأنّهم يُعاملون وكأنّهم آلات ضمن ثورة تقنيّة عارمة ، لا تُركّز إلّا على الأبعاد التّقنيّة والماديّة في الذّات البشريّة المُتعدّدة الأبعاد.

1- باولو فرايري، تعليم المقهورين، ترجمة مايرا راموس سنة 1968، تعريب: يوسف نور عوض، دار القلم، بيروت، 1980م، ص 70.

المصادر والمراجع

1. ناجي الحجلاوي، التّفكير الاجتماعيّ عند مالك بن نبي، الدّار التّونسيّة للكتاب، تونس، 2011م.
2. أبو القاسم حاج حمد، منهجيّة القرآن المعرفيّة، دار الهادي، بيروت، 2003م.
3. شلتاغ عبّود، «في المصطلح الثّقافي والتّغريب»، في: مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، ع 33، أفريل 2001.
4. محمّد مصطفى هدّارة، «التّغريب وأثره في الشّعر»، في: مجلّة الأدب الإسلاميّة، مج1، ع2، 1994م.
5. سلامة موسى، اليوم والغد، مؤسّسة هنداوي سي آي سي، 1991م.
6. طارق البشري، «سيبقى الغلو ما بقي التّغريب»، في: مجلّة العربي، ع 278، جانفي 82 19
7. عبد الرّحمان بن خلدون، المقدّمة، دار عالم الثّقافة، الأردن، دون تاريخ.
8. عمر فرّوخ ومصطفى الخالدي، التّبشير والاستعمار، منشورات المكتبة العصريّة، بيروت، 1953م.
9. مالك بن نبّي، شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق،1979 م.
10. ـــــــــــــــــــــــ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، تعريب محمّد عبد العظيم علي، دار الحكمة، تونس، 1985م.
11. هاري ماجدوف، الإمبرياليّة من عصر الاستعمار حتّى اليوم، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، 1981م.